قصة الفتح العظيم
قراءة نقدية فى كتاب «فتح العرب لمصر» للمؤرخ الإنجليزى . ألفريد بتلر

مؤمن الهباء *

على الرغم من أن الاحتفال بمرور ١٤ قرنا على الفتح الإسلامى لمصر يعد مناسبة وطنية ودينية إلا أن هيئة قصور الثقافة انفردت وحدها بإعداد خطة لإقامة المؤتمرات والمهرجانات احتفاء بهذا الحدث التاريخى المهم، وأعطت بذلك للفتح أبعادا ثقافية ربما غابت عن كثير من الباحثين، وعقدت من أجل ذلك مؤتمراً فى الإسكندرية وآخر فى العريش، والبقية تأتى، بينما وقفت مؤسساتنا الدينية والإعلامية تتفرج، وكذلك الأحزاب ومنظمات المجتمع المدنى، والجمعيات الأهلية، وهؤلاء جميعاً يدركون أنه لولا دخول الإسلام فى مصر، أو دخول مصر فى الإسلام، ما كانت مصر هذه التى نعرفها، فالإسلام هو الذى أعطى لمصر شخصيتها وهويتها، وهيألها موقع القيادة على مستوى الأمة.

لقد جاء الفتح الإسلامى تحريراً لإرادة مصر قبل أن يكون لنشر الدين الجديد، وكانت مصر فى اشتياق حقيقى لهذا النور الآتى من الشرق، من بلاد العرب، ليحررها من الاستعمار الرومانى الذى اضطهد الأقباط سياسياً ودينيا، فلم تكن هناك دولة قبطية فى مصر، ولم يحكمها قبطى واحد منذ دخول المسيحية مصر وحتى دخول الإسلام، وقد كان للفتح دور كبير فى انقاذ الكنيسة القبطية من الاندثار، وحفظ تراثها وعقيدتها، لذلك يقال دوماً إن مصر الشعب فُتحت صلحا لأن الشعب كان مع الجيش الفاتح، ولكن مصر الدولة الاستعمارية فُتحت عنوة، لأن القتال كان ضد قوات الاحتلال الرومانى.

---

* كاتب وباحث أدبى .

ومن أهم وأقدم الكتب التى تناولت بالوثائق الفتح الإسلامى كتاب «فتح العرب لمصر» تأليف د . ألفريد بتلر، وهو يمثل المرجع الأساسى لكل الكتب - تقريباً - التى غطت المرحلة التاريخية للفتح من كافة جوانبها، وبتفصيل كامل، ورؤية علمية، تقترب كثيراً من الحياد والإنصاف.

وكنت قد قرأت عن كتاب بتلر هذا، وتلمست نبذاً عنه فى هوامش بعض الكتب التى اتخذت منه مرجعاً أساسياً لمادتها، وأدهشنى أن الكتاب الذى صدر فى سبتمبر ١٩٠٢ قد أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٩ فى سلسلة «تاريخ المصريين»، ثم غفلت عنه، وغفلنا معها .

والكتاب بجزأيه يمثل - بحق تحفة علمية وأدبية أبدعتها يد الباحث الإنجليزى المدقق د . ألفريد بتلر وقلم المترجم المبهر الأستاذ محمد فريد وجدى، على أننى أتعجب: كيف اختار هذا العالم الخطير عنوان كتاب «فتح العرب لمصر» وليس «الفتح الإسلامى لمصر»، خاصة أنه يدرك - كما ندرك جميعاً، أن العرب ما كان لهم أن يفتحوا مصر إلا بالإسلام، لم يفتحوها تحت لواء العروبة، ولا القومية العربية، ولكن فتحوها بالإسلام، العقيدة الجديدة الشابة التى فتحت كل عواصم الشرق، هذا فضلاً عن أن جيش الفتح لم يضم العرب فقط، ولكن كان يضم العديد من الأجناس والألوان والألسن، لا يجمعهم ولا يربط بينهم إلا عقيدة التوحيد.

الإسلام إذن هو الذى فتح مصر، لم يفتحها طلباً لملك يتوسع، ولا لنشر لغة وفرض سيادة عرق، ولا طلبا لموارد مالية وبشرية، وإنما فتحها برسالة هداية لتحرير الشعوب من الظلم والإضطهاد، ولقد أثبت بتلر فى أكثر من موضع فى كتابه أن المصريين الأقباط كانوا واثقين أن الله قد بعث المسلمين لفتح مصر عقاباً للروم الذين كانوا يحتلونها آنذاك، وأذاقوها العذاب ألوانا.

١ـ البداية

يبدأ الكتاب بالحديث عن أحوال الإمبراطورية الرومانية التى تملك الشام ومصر ومعظم بلاد العرب وافريقية، والتى بدأ الضعف يدب فى أوصالها مع بداية القرن السابع، خاصة حين تولى أمرها جندى جاهل، مُشوّه الخلقة، هو «فوكاس» سنة ٦٠٢م .. وما إن أتى عام ٦٠٩م حتى كانت بلاد الدولة كلها هائجة تتهيأ للثورة، وكان على رأس الثائرين هرقل حاكم افريقية - ٦٥ سنة - الذى قرر إرسال ابنه وسميه «هرقل» - ٣٥ سنة - للقضاء على فوكاس والفوز بالتاج، ولم يكن فى بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى حالا من مصر - هكذا يقول بتلر - فقد سعى الأباطرة إلى إجبار القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة «الأرثوذكس» لإدخالهم فى ذلك المذهب، ولم يكن عجباً أن تضطرب الأحوال فى مصر فتصبح ميدانا للشغب والحرب الأهلية، بينما

الحكام لاهم لهم إلا أن يجمعوا المال للملك البيزنطى، وأن يكون لمذهبهم الدينى اليد العليا بين أهل البلاد، فصار الحكم على أيديهم أداة للظلم ونشر الشقاء، وصارت مصر جميعها تضطرم بنار الثورة ورغبة الخروج، لا يغطيها إلا غطاء شفيف من الرماد .

ويتوقف بتلر عند ملحوظة مهمة... فيؤكد أنه لم يحكم مصر قبطى واحد طوال تاريخها المسيحى، بل كان الحكم المدنى والجيش كلاهما فى يد السادة الحاكمين ليس فيهم أحد من أقباط مصر أهل البلاد، فكان الحكم بذلك ــ حكم الغرباء ــ وهذه تعبيرات وكلمات المؤلف ــ لا يعتمد إلا على القوة، ولا يحس بشىء من العطف على الشعب المحكوم. وكانت أمور الدين فى مصر إبان القرن السابع أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة، فلم تكن أمور الحكم هى التى قامت عليها الأحزاب، واختلف بعضها عن بعض فيها، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانه، وكان الناس لا يكادون يحسون بشىء اسمه حب الوطن، وما كانت عداوتهم لتثور بسبب الجنس والوطن، ولكن بسبب اختلاف المذهب الدينى .

لم يكد الأمر يستقر لهرقل ــ الإبن ــ الذى توج امبراطورا فى القسطنطينية عام ٦١٠م حتى فوجىء بحملة شعواء قادمة من بلاد فارس، استطاعت فتح الشام وبيت المقدس عام ٦١٥م بعد أن هدمت الكنائس ونهبت الأديرة، وحمل الفرس الوثنيون الصليب المقدس إلى عاصمة دولتهم مع آلاف من الأسرى معظهم من القساوسة والرهبان والراهبات، وفى عام ٦١٧م فتح الفرس مصر، وخضع الأقباط للسيد الجديد، الذى قتل الرجال وحرق المدن وهدم الكنائس والأبنية، فظلت كذلك أطلالاً إلى ما بعد الفتح الإسلامى لمصر.. يقول بتلر: «كانت معاملة الفرس للقبط واحدة فى كل مكان .. يحل الموت والخراب حيث حلوا ..» ص٧٥ .

ويلاحظ هنا ــ أن القبط رغم مقتهم للروم لم يرحِّبُوا بالفرس الغزاة، ولم يروا فيهم الخلاص، بل كانوا يرونهم بعين الجزع، فقد خضعوا مرة أخرى لسيد جديد بعد زوال سلطان السيد القديم عنهم.. ويعلق بتلر على ذلك قائلاً: «وقد كان هذا شأن تاريخهم السياسى من أقدم الأزمان أن تتبدل عليهم السادة وتتعاقب.».

٢ـ صحوة هرقل

تقلصت الإمبراطورية الرومانية، ولم يبق للإمبراطور هرقل غير عاصمته القسطنطينية بعد أن استولى الفرس على ممالكها الشاسعة، بل صاروا يهددون العاصمة ذاتها.. ولأسباب عديدة حدثت إفاقة مفاجئة لهرقل عام ٦٢٢م فكوّن جيشاً عظيماً وبدأ أول حرب صليبية فى التاريخ

ولم يأت عام ٦٢٧م حتى كان قد استرد ملكه فى بيت المقدس والبوسفور ومصر، وطرد الفرس منها، وتحققت نبوءة القرآن الكريم التى وردت فى أول سورة الروم .

وبعد أن استقرت الأمور لهرقل سيطرت عليه فكرة توحيد مذاهب المسيحية فى مذهب واحد يوفق بينها، ويكون هو مذهب الدولة الذى تجتمع عليه كل الرعية .. ويقضى هذا المذهب الجديد بأن يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة أو قضاء واحدا، وعلى الرغم من أن نية الإمبراطور كانت حسنة إلا أن هذا الحكم كان مستحيلاً، لأن معناه أن يجبر الناس جبراً على تغيير دينهم ومذهبهم ولو بالقوة، وهذا ما حدث بالفعل، خاصة فى مصر، وأدى إلى اضطهاد الأقباط وقساوستهم، على رأسهم البطريق بنيامين الذى فر بدينه إلى الصحراء ولم يخرج منها إلا بعد الفتح الإسلامى .

ينقل بتلر عن قيد رينوس (ص١٣٥) قوله: «على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك ـ أى تستحوذ وتسيطر عليها ـ ومن لا يخشون الله من القسوس، خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا».. ويعلق بتلر على ذلك قائلاً : «وهى كلمات قليلة ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمداً كان رسولا من الله، أو هو على الأقل «سوط» من الله أرسله عليهم، ثم يقول فى الصفحة التالية (١٣٦): «وذلك أنه قد شاعت نُبوءة بين بعض المسيحيين فارتجفت لها أفئدتهم وهى أن الإسلام حق، وأن نصره حق».

ونقل بتلر عن المؤرخ: «أبو الفرج» قوله: «ولما شكا الناس إلى هرقل لم يجب جواباً، ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب، فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهتهم الشديدة وعداوتهم المرة، على أن كنائسنا لم ترجع إلينا لأن العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين على ما كان فى يدها عند فتح البلاد».

٣ـ(نهاية هرقل)

فى عام ٦٣٥م توج انتصار العرب بفتح دمشق العاصمة القديمة لبلاد الشام، وجاءت أنباء هزيمة جيش الروم إلى هرقل وهو فى انطاكية، فعرف أن الأمر أفلت من يده، وأن الله قد خذل الإمبراطورية، ومما زاد ألمه شدة علمه أنه ارتكب خطيئة بزواجه من ابنة اخته «مرتينه» وأنه أخذ فى الإعتلال، فبقى فى شدته ثلاث سنين خبت فيها آماله، ونوت قوته، وعلا أمر الإسلام تحت بصره وسمعه ولم يتحرك لمقاومته، فما زال الإسلام يعلو حتى طوى دولته تحت ظله».

وكان هرقل قد أرسل البطريق فيرس ـ أو المقوقس ـ إلى مصر لحمل القبط على

اعتناق المذهب الجديد الذى اخترعه الإمبراطور لتوحيد المذاهب، وكان المقوقس - على حد قول بتلر - عاتياً ومتكبراً، ومن الطبيعى أن يرفض القبط المذهب الجديد .. فقد كان استقلالهم فى أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم، فإنهم لم يعرفوا الاستقلال القومى قط، ولعلهم لم يحلموا يوماً بمثل ذلك الأمل، وأما الاستقلال فى أمر الدين فقد ناضلوا من أجله، وجاهدوا فى سبيله، لم ينثنوا عن ذلك فى وقت من الأوقات ».. وبسبب هذا الرفض من جانب القبط بدأ عهد الاضطهاد منذ عام ٦٣١م ولمدة عشر سنوات حتى جاء الفتح الإسلامى .. وقد نقل بتلر عن «ساويرس» أحد مؤرخى ذلك العصر قوله: «لقد كانت هذه السنين هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الإضطهاد والظلم .

٤-(جيش عمرو)

فى الوقت الذى كانت مصر تموج بالاضطراب والإضطهاد، وكان نور الفتح الإسلامى يشرق من جزيرة العرب على بلاد الشام فى الشمال، وذهب الخليفة عمر بن الخطاب إلى فلسطين وتسلم بيت المقدس، ثم سار إلى الشمال مع عمرو بن العاص الذى حدثه عن فتح مصر، فوافق بعد تفكير عميق، واستقر الخليفة لبعض الوقت فى دمشق بينما هبط عمرو فى جيش صغير من الخيل إلى الجنوب حتى بلغ رفح ثم العريش، فأتته عند ذلك رسالة من الخليفة، ويقول المؤرخون إن عمرو تباطأ فى تسليم الرسالة لعلمه أنها ربما لم تأته بالرضا، فلم يأخذ الرسالة حتى عبر مهبط السيل الذى يفصل بين مصر وفلسطين فصار فى العريش، وهناك طلب الرسالة وفتحها وقرأ فيها أمر الخليفة بالعودة إن كان تعد فى فلسطين، فإذا كان قد دخل أرض مصر فليسر على بركة الله، ووعده أن يدعو الله له بالنصر وأن يرسل له الإمداد، ثم سأل عمرو من حوله: «أنحن فى مصر أم فى الشام؟.. فقيل له : نحن فى مصر، فقرأ على الناس كتاب الخليفة ثم قال: إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين .. كان ذلك فى ديسمبر ٦٣٩م .

يقول بتلر فى ص ١٧٦ أنه «كان فى جيش عمرو جماعة ممن أسلم من الروم والفرس الذين كانوا باليمن ، ولعل هؤلاء جاءوا فيما بعد مع الأمداد التى بعث بها الخليفة إلى مصر». وهذا الذى أثبته بتلر يؤكد أن الفتح كان إسلامياً ولم يكن عربياً.. كان ينطلق من أساس عقائدى، وليس من أساس «عرقى»، ولم يكن الفاتحون مجرد قبائل عربية من بدو الصحراء كما يردد الجهلة .

سار عمرو بجيشه من العريش إلى مدينة الفرما عبر تلال وكثبان من الرمال المتحركة، ولم يلق أحداً من جنود الروم حتى اقتربوا من أسوار المدينة المحصنة، ولم يكن لجيش عمرو خبرة بحرب الحصون

والحصار، وما كان ليقدر على حصار الفرما من كل جوانبها، لذلك انتظر حتى يهبط فيها المحاربون طلباً للقتال، واستمرت الحرب متقطعة لمدة شهر إلى أن خرج جنود الفرما مرة للقتال ولما عادوا لائذين إلى مدينتهم تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يغلقوه، وكان أول من اقتحم المدينة من العرب «سميعق بن وطة السبار» وقد تردد فى الروايات أن القبط ساعدوا المسلمين فى هذه الحرب لكن بتلر نفى ذلك.

ويقال إن المقوقس بعث بإثنين من الأساقفة لمفاوضة العرب، ولكن بتلر يستبعد ذلك ثم يعود ويقول إنه قد جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة، وأنهم فاوضوا عمرا وطلب عمرو إلى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم وبين العرب من قرابة فى النسب، إذ تجمعهم هاجر ولكن القبط قالوا إن هذه قرابة ما أبعدها، فأمهلهم عمرو أربعة أيام ليأتوا إليه بما استقروا عليه، ولكن ما كان قائد الروم «أرطبون» لينظر فى مثل هذا القول، وقرر أن يباغت جيش العرب، إلا أن الدائرة دارت عليه فهزم وتمزق جيشه، ولبث العرب عند بلبيس مدة شهر حدث فى أثنائه قتال كثير، وقتل من العرب فيه عدد ليس بالقليل، ويقال إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير .

٥ـ(على أبواب الحصن)

يقول د. الفريد بتلر فى صفحة ٢٢٠:
«نحن نعرف أن مؤرخى العرب ومن قال قولهم إنما يسخرون الحقيقة ويقلبونها قلباً إذ يقولون إن جند حصن بابليون أو كل من كان به كانوا من القبط، فإن القبط لم يكونوا فى شيء من القتال ولا الجيوش، وكان الاضطهاد فى مدة السنوات العشر التى سبقت الفتح قد شطر مذهبهم وفرقهم، فكان منهم من ذهبوا أفراداً وجماعات فهربوا إلى الجبال والكهوف، أو أووا إلى الصحراء أولانوا بالأديرة الحصينة فى الصعيد، وأما أقباط مصر السفلى وبابليون والاسكندرية فقد اضطروا إلى الدخول فى مذهب الدولة ـ أى الدولة الرومانية المستعمرة ـ ولم يغن عنهم شيئاً ما كان فى قلوبهم من كره لما دخلوا فيه، وقد كتب مؤرخو العرب بعد الفتح بقرون فكانوا يذكرون جيوش المصريين وقواد المصريين لا يميزون بين القبط والروم فكثرت من ذلك زلاتهم وعظم خلطهم، فعلينا أن نبين هنا بيانا لا شك فيه أنه لم يكن فى ذلك الوقت شيء اسمه القبط فى ميدان النضال، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه، قد أذلهم فيرس ـ أو المقوقس ـ وأرغم أنوفهم، فليس من الحق فى شيء أن يقول قائل إن القبط كانوا يستطيعون أن يجتمعوا على أمر أو ينزلوا إلى القتال أو يصالحوا العرب».

فى أول اكتوبر ٦٤٠م كان قد مر على حصار المسلمين لحصن بابليون شهر كامل، وخوفاً من أن يستمر الحصار أكثر من ذلك جمع المقوقس من كان معه فى الحصن من رؤوس الحرس والآساقفة سراً، وأقنعهم بضرورة التفاوض مع المسلمين دون أن يعلم

الجند المرابطون، وقدم لهم خطة تقضى بأن يفدوا أنفسهم بالمال فيعطوا أعداءهم ــ المسلمين ــ مقداراً منه ليرحلوا عنهم ويتركوا مصر، وأرسل رسلاً بهذه الخطة إلى عمرو بن العاص، لكن عمرا لم يرد، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين إذ أبيح لهم أن يسيروا فى العسكر، ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال: «ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال، إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين».

عاد الرسل إلى المقوقس، وقد وقع فى نفوسهم ما عند المسلمين من بساطة وإيمان فقالوا: «رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا مهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم».

فرح المقوقس بعودة الرسل، وطلب من عمرو أن يبعث إليه وفداً من المسلمين للتفاوض، فأرسل عمرو عشرة من رجاله أحدهم عبادة بن الصامت، وكان عبادة أسود شديد السواد، وأمرهم أن يكون هو المتحدث، بشرط ألا يتجاوز البدائل الثلاثة، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال: «نحوا عنى ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمنى» .. فقالوا: «إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله» .. ثم قالوا فكان قولهم عجيباً عند المقوقس أن الأبيض والأسود سواءعندهم، لا يفضل أحد أحداً إلا بفضله وعقله وليس بلونه.. فقال المقوقس لعبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه، فقال له عبادة: «إن من خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً منى، وإنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً، وكذلك أصحابى، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلباً للإستكثار منها .. لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة» .. فلما سمع المقوقس ذلك رد قائلا: «أيها الرجل الصالح .. لعمرى ما بلغتم ما بلغتم، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها».. ثم أخذ يخوفه من المدد والحشود التى ستأتى من الروم، وعرض عليه أخيراً المصالحة على أن «نفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، وخليفتكم ألف دينار فتقبضوها وتنصرفون إلى

بلادكم».. فقال عبادة: يا هذا لا تغرن نفسك وأصحابك، ما كان هذا الذى تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم، وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءاً أن يرزقه الشهادة».. وأخيراً اختار المقوقس أن يدفع الجزية بعد أن طمأنه عبادة بن الصامت على أنه «إن دفعتم الجزية كنتم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم مسلطين فى بلادكم على ما فى ايديكم وما تتوارثونه، وحفظت لكم كنائسكم ولا يتعرض لكم أحد فى أمور دينكم» .. وعقد المقوقس الصلح على ذلك مع عمرو بن العاص ثم سافر إلى الإسكندرية ليبعث بالإتفاق إلى هرقل فى القسطنطينية كى يقره، لكن هرقل رفض الصلح، وبعث إلى المقوقس يستدعيه على عجل، فلما وقف أمامه يشرح أسباب الرضوخ والقبول بدفع الجزية قال: «إن العرب قد يحملون على الخروج من مصر بعد ذلك، وأما الجزية التى ستدفعها فما أسهل أن نجبى مقدارها من تجار الاسكندرية فلا تنقص موارد الدولة، وأما عن المسلمين فإنى لا أرى موضعاً للأمل، فالعرب قوم لا يشبهون سائر الناس فى شيء فهم عند حد قولهم، لا يعبأون بأمر من أمور هذه الدنيا ومتاعها، لا يطلبون منها إلا لقمة يسدون بها رمقهم ، وشملة يسترون بها أبدانهم، فهم قوم الموت، يرون ربحاً فى أن يقتلوا، لأنهم ينالون بذلك الشهادة ويدخلون الجنة، فى حين أن الروم يحبون متاع الدنيا ويحرصون عليه، لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم فى القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبون، فليس لنا من سبيل غير الصلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوة، وتصبح البلاد غنيمة له».

بلغ العرب نبأ رفض هرقل للصلح، وحكمه على المقوقس بالنفى، فانتهى بذلك عندهم أمر الهدنة وبدأت المناجزة، يقول بتلر: لم يكن للعرب مهارة فى حرب الحصون والحصار، لذلك لم يكونوا على ما ينبغى من الحذر واليقظة، وقرب نهاية عام ٦٤٠م خرج جماعة من حرس الحصن ففاجئوا عبادة بن الصامت والزبير فى صلاتهما فوثب الرجلان إلى فرسيهما وحملا على الروم، فلما رأى الروم أنهم مدركون جعلوا يلقون حليهم وذهبهم ودروعهم على الأرض ليشغلوا بها الفارسين عند طلبهما لكنهما لم يلتفتا حتى دخلا الحصن وأصيب عبادة إصابة طفيفة من حجر رمى به، ورجع الفارسان دون أن ينظرا إلى ما ألقى جنود الروم، بل عادا إلى موضعهما وأتما الصلاة، وخرج الروم إلى متاعهم يجمعونه .. فلما كان المسلمين فى يوم الجمعة قد اجتمعوا للصلاة سار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم علي القتال فرآهم ربيئة الروم وحمل إلى قومه فى الحصن نبأ اجتماعهم، فلما انتهى عمرو من خطبته وأمّ المسلمين فى الصلاة، وفيما هم كذلك هبطت عليهم جنود الروم بغتته وهم عزل ليس معهم سلاح فأوقعوا بهم واستشهد منهم عدد كبير.

٥ـ الفتح الأعظم

انتظر جنود الروم كثيراً داخل حصن بابليون أن يأتيهم المدد من الإمبراطور لكن شيئاً لم يصل فاستحكم بهم اليأس، وتملك منهم المرض إلى أن سمعوا يوماً تكبيراً عالياً في عسكر المسلمين فى أوائل شهر مارس ٦٤١م فلما استطلعوا الأمر عرفوا أن هرقل قد مات، فخارت بذلك قواهم، أما العرب فقد زادت جرأتهم وتضاعفت همتهم فى فتح الحصن.

بقى الحصن بعد ذلك شهراً لم يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير وهب نفسه وأقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعد للأمر عدته، فلما جاء الموعد المحدد أقبل الناس سراعاً تحت جنح الليل ووضع الزبير سلماً على السور، فما شعر جند الروم إلا والبطل العربى - هكذا قال بتلر - على رأس الحصن يكبر، وسيفه فى يده، وتحامل الناس إليه من داخل الحصن لكن سهام المسلمين أمطرتهم من الخارج، واستطاع بذلك أصحاب الزبير أن يصلوا إليه فوق السلم ويطأوا أسوار الحصن بأقدامهم، ويمتلكوا رؤوس الأسوار... فلما رأى ذلك كبار قادة الروم فى الحصن أدركوا أن الأمر قد انتهى، وأسرعوا فى طلب الصلح من عمرو، وعرض «جورج» قائد الجند فى الحصن أن يسلم على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم فقبل عمرو وخالفه الزبير خلافاً شديداً فى ذلك.. وقال .. «لو صبرت قليلاً لنزلنا من الأسوار إلى داخل الحصن ولكان الأمر على ما تشتهى» لكن عمراً لم يلتفت وكتب عهد الصلح على أن يخرج جند الروح من الحصن فى ٣ أيام .. وكانت حملة الزبير فى يوم الجمعة ٦ أبريل ٦٤١م وكان خروج الجند الإثنين ٩ أبريل وهو يوم عيد الفتح .

يروى المؤرخ الإنجليزى د. ألفريد فى ص٢٣٩ واقعة عجيبة أثناء تسلم الحصن تدل على غدر الروم وخستهم .. يقول إن جند الروم كانوا قد سجنوا معهم فى أول الحصار كثيرا من القبط الذين كانوا فى الحصن لأنهم شكوا فى أمرهم، فلما جاء يوم الفتح الذى فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم نقمة من هؤلاء المسجونين التعساء فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسياط وقطعوا أيديهم .. أمرهم بذلك كبيرهم أودوقيانوس، ولا عجب مع هذا أن نجد الأسقف المصرى حنا النقيوسى يسبهم فى ديوانه، ويسميهم «أعداء المسيح» الذين دنسوا الدين برجس بدعتهم وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه، فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان.

ويختتم بتلر هذا المشهد البائس بقوله: «وإنه ليس بغريب من مثل الأسقف المصرى أني يقول أن فتح الحصن للمسلمين لم يكن إلا عقاباً من الله على ما فعله الروم من الأفاعيل فى القبط».